رسالة ملكية إلى الندوة الدولية
حول ترميم صومعة الكتبية بمراكش

وجه جلالة الملك الحسن الثاني يوم 5 محرم 1417 هـ موافق 23 ماي 1996، رسالة الى الندوة الدولية المنعقدة بمدينة مراكش تحت شعار «صومعة الكتبية دراسات وترميم» التي نظمتها جمعية الأطلس الكبير بتعاون مع جامعة القاضي عياض.

وفي ما يلي النص الكامل للرسالة الملكية التي تلاها مستشار صاحب الجلالة السيد عبد الهادي بوطالب أثناء الجلسة الافتتاحية لهذه الندوة:

الحمد لله والصلاة والسلام على مولانا رسول الله وآله وصحبه،
أيها السادة والسيدات،

نحيي انعقاد مناظرتكم الدولية المباركة فوق أرض مراكش الحمراء أطيب تحية، ونرحب بضيوف مملكتنا المشاركين من العلماء والخبراء والباحثين أجمل ترحيب، متمنين لهم مقاما طيبا بين ظهرانينا وداعين الله لهم ولجميع المساهمين في هذا اللقاء بالتوفيق، ولهذا الاجتماع أن يبلغ مقصده ومرماه وأن ينتج ما تعم فوائده التراث التاريخي وما يغني إحياءه بالجديد المفيد.

وإنه لا يخفى عليكم أن عراقة الامم وأصالتها تعرفان بما ورثته حضارتها عن أسلافها من معالم وآثار وأن نضج الشعوب ومدى ارتفاع مستوى وعيها بذاتها ومحيطها يقاسان بمبلغ عنايتها بتراثها صيانة وتجديدا.

لقد ترسخ في تقاليدنا المغربية العريقة أن صيانة الآثار بر صادق بالأسلاف ووفاء لذكراهم وتقدير لجهودهم واقتداء بسيرتهم وإحياء لتراثهم واستلهام من طموحهم.

وتشكل الآثار الى جانب قيمتها المعنوية ثروة وطنية تدر أحيانا على البلاد من الموارد ما قد يعادل مواردها الأخرى إن لم يفقها، وقد تغني نظرة واحدة الى أثر ماثل رائع عن قراءة مجلد من تاريخ البلد وتكفي وحدها للتعريف بمدى ما وصل اليه شعبه من حضارة وإبداع وتألق وإشعاع.

وإن لقاءكم حول محور إعادة ترميم صومعة الكتبية الذي ستغنونه بنقاشكم ليكتسي بالنسبة لملكتنا أهمية خاصة. ولابد أنكم اطلعتم من مواقعكم كعلماء وخبراء واختصاصيين في هذا الميدان على ما تزخر به بلادنا من معالم ومآثر حيث لا يخلو تجمع سكاني هام في السهول والجبال وأطراف الصحراء من قلعة سامقة أو حصن منيع أو برج شامخ أو سور حصين أو أثر مدينة عتيقة.

ومن طبيعة سكان المغرب منذ فجر التاريخ التنافس المحمود في البناء والمعمار والتسابق الى الإبداع الفني سواء منه اليدوي أو الفكري، والحرص الموصول على ترك البصمات الثابتة الدالة على آثار الغابرين وحفظها لمن سيأتي بعدهم من ورثتهم المتلاحقين.

ونحن على يقين أن ما لم يكتشف من هذه الآثار أكثر مما تم اكتشافه، الأمر الذي يتطلب منا تدريب جيل كامل من الشباب على امتلاك الوسائل والطرق العلمية الحديثة للاستكشاف والبحث وتأهيلهم لرصد مواقع الحفريات واستخراجها وترميمها وصيانتها وعرضها.

ويطيب لنا أن نوجه تحية خاصة الى أهل مراكش وفي مقدمتهم أعضاء جمعية الأطلس الكبير التي سارعت الى تنفيذ تعاليمنا بالقيام بترميم صومعة الكتبية العتيدة، وأقامت هذه المناظرة الدولية لدراسة ظروف وشروط هذا الترميم. كما ننوه بالإسهام المشكور في هذه المناظرة لجامعة القاضي عياض.

ذلكم أننا كنا أصدرنا أمرنا بإجراء دراسة شاملة وخبرة معمقة لمعرفة ما إذا كانت تحف بالصومعة مخاطر محتملة تهدد استمرارها.

وقد انطلقت هذه الدراسة في دجنبر 1992 واستمرت الى فبراير 1996 معتمدة الفحوص المخبرية وأحدث الطرق العلمية المتبعة في هذا الشأن، وقامت بالدراسة مجموعة من المختبرات ومراكز الدراسات المتخصصة والمعاهد الأركيولوجية ذات الشهرة العالمية بمشاركة مهندسين ومعماريين مختصين في الترميم، مغاربة وأجانب.

وصدرت نتائج هذه الدراسات في 17 تقريرا تقنيا وعلميا أظهرت جميعها أن صومعة الكتبية في حالة جيدة لا يتهددها أي خطر.

وفي ضوء هذه النتائج المشجعة أصدرنا أمرنا الشريف الى جمعية الأطلس الكبير لتولي الإشراف على عملية الترميم ومتابعة إنجازها طبقا للمقتضيات والتقنيات المتعارف عليها دوليا والمتبعة في ميدان ترميم المعالم التاريخية الكبرى.

وكانت هذه المعلمة قد أقيمت في بداية العهد الموحدي شامخة فوق مسجد الكتبيين بمراكش. وسمي المسجد بهذا الاسم لأنه أقيم في حي مخصص لبيع الكتب ونشرها، أي أن الخليفة الموحدي عبد المومن بن علي اختار أن يكون موقع المسجد في محيطه الملائم.

ويعود فضل اتمام صومعة المسجد في إبداعها الفني الكبير الى حفيده الملك يعقوب المنصور بعد أن كان جده عبد المومن بن علي قد أقام المسجد وبنى جزءا من صومعته التي أصبحت تحمل اسم الكتبية وهي إحدى المآذن الصامدة الثلاث التي أعلاها هذا الملك وما تزال قائمة الى اليوم، إذ توجد بالرباط صومعة حسان والخيرالدة بإشبيلية بالاندلس.

وقد اكتست هذه الرموز الثلاثة التي استعصت حتى على تدمير الزلازل العاتية معاني توحيدية لعدوتي المغرب والأندلس في عصر بنائها. وهي المعاني التي أخذت تكتسيها أيضا في عصرنا هذا حيث تعاظم الشعور بين شعبي الضفتين المتوسطيتين بضرورة التعاون والتفاهم والتكامل، وتجاوز هذا الشعور مرحلة التمني الى الارتياد والاستكشاف الجاد لمد الجسور المادية والارتباطات العملية عبر بحيرتنا المشتركة، ومن هذه الجسور الواصلة مشروع نفق الربط القار الذي اكتملت اليوم دراساته وتصاميمه، وهو يمضي قدما نحو إنجازه وإخراجه الى حيز الوجود.

وإننا لعلى يقين من أن جيراننا الاسبانيين لن تغيب عنهم دلالات الرموز الكامنة في الصوامع الثلاث والتي ربطت بين بلدينا ثمانمائة سنة برباط روحي عرقي فكري ، وهاهي هذه

الرموز تشهد اليوم صحوة جديدة قوامها الصداقة والتعاون والاحترام المتبادل وحسن الجوار ربطا للحاضر بالماضي.

أيها السادة والسيدات،

إن تشييد الاثار الباهرة والمعالم الفاخرة ليس حكرا على الامم الغابرة. فكما بنى السالفون وتركوا لنا، علينا ان نبني نحن للاحقين الذين سيخلفوننا مضيفين الى ما تركه الاولون - مشكورين - ما يمكن ان يكون أبهى وأرقى وأنفع وأبقى.

وإيمانا منا بهذا المبدأ، وجريا على سنن أسلافنا المنعمين، فإننا والحمد لله قمنا بواجبنا في هذا الميدان فشجعنا على صيانة ما انحدر الينا من تراث، وعملنا على حفظه من التلف والاندثار وأضفنا اليه ما رأيناه أجدر بالإضافة. وهكذا شيدنا بالرباط ضريح والدنا المنعم تكريما لمقامه وتخليدا لعهده الزاهر، وجمعنا فيه كل ما توفر لدينا أثناء بنائه من ذخائر الخبرة في التصميم والنقش والتزيين والحفر والتلوين.

كما وفقنا سبحانه الى تصور فريد وتخطيط إبداعي جميل لمسجد الحسن الثاني بالدار البيضاء عاصمتنا الاقتصادية وأكبر حواضر مملكتنا حرصنا على أن نجمع فيه ما تفرق في غيره من تحف المعمار المغربي وجماليات زخرفه، فجاء كما تصورناه وأحببناه شاهدا على ما وصلت اليه عبقرية المغرب والمغاربة من ذوق سليم وإتقان عظيم مما جعل منه معلمة تراثية حضارية جليلة وتحفة أثرية إبداعية أصيلة.

وفي المسجد الأعظم هذا اتحنا للصناع المغاربة المهرة الذين عملوا في بنائه وتشييده وزخرفته فضاء إبداعيا لم يسبق له نظير وأنقذنا في نفس الوقت فنوننا الصناعية التقليدية، حيث كانت يد الصانع المغربي على وشك الانقراض حتى لم يبق آنذاك في جميع مدن المملكة إلا حوالي أربعين صانعا تقليديا تجاوز أغلبهم الستين من العمر.

وكم كان قلقنا عظيما لاكتشاف هذا الوضع المزري عندما هممنا بترميم قصر فاس بعدما أصابه في عهد الحماية من إهمال وبلي، لكن سرورنا كان أعظم لأن ذلك الوضع كان حافزا لنا على

العمل لمواجهته بإصرار وتلافي عواقبه بمنتهى الحزم وبالغ السرعة إذ بادرنا الى إصدار تعليماتنا باستقدام أولئك الصناع القلائل الى قصر فاس وأسندنا اليهم مهمة تعليم ألفي صانع شاب من ذوي المواهب الفطرية وتدريبهم في عين المكان على سائر فنون الزخرفة التراثية واستخدامهم في ترميم ذلك القصر التاريخي وإحيائه.

وبهذه العملية لم ينقذ المغرب قصرا من قصوره العريقة فقط بل كسب تكوين ألفي صانع تقليدي شاب انتشروا في جميع أنحاء المملكة يعملون ويدربون، لا يقتصر نشاطهم على ربوع مملكتنا بل انهم والحمد لله منتشرون خارج المغرب، خصوصا في الدول العربية والاسلامية، يزخرفون المساجد والقصور والمعالم الكبرى ويطبعون بالفن المغربي الأصيل الفنادق والمنازل الخاصة.

أيها السادة والسيدات،

مرة أخرى نبارك أعمالكم التي لاشك أنها ستكون مثمرة نافعة، ونشكركم سلفا على ما ستغنون به مناظرتكم من جهد فكري مشكور وما ستسهمون به في إحياء موروثنا الحضاري من عطاء مبرور.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وحرر بالقصر الملكي بالرباط

في يوم الخميس 5 محرم 1417هـ

موافق 23 ماي 1996.